الأصول التاريخية للتربية الإسلامية

مقدمة :

ليس من شك فى أن المهمة الأساسية لفيلسوف التربية ، هى أن يحفر تحت أرض الواقع الثقافى بحثا عن الجذور التى أنبتته ، وليست مهمته أن يقفل على نفسه باب مكتبه ليصول ويجول بعقله متأملا تأملا فلسفيا منقطع الصلة بالواقع ، ناسجا من هذا التأمل المجرد قماشا يتصور أنه سيستطيع أن يلبسه الواقع [١] .

أما والأمر هكذا ، فلاشك أن الواقع الثقافى العربى يطوى فى أحشائه عددا من السمات والاتجاهات الثقافية الخاصة تجعل من العرب عربا يتميزون عن غيرهم من الأمم والشعوب الأخرى . صحيح أن هذه السمات والاتجاهات قد تطورت ولبست أثوابا متعددة بتعدد العهود والأزمان ، إلا أنها احتفظت بأسس ثابتة ومذاق خاص وأصول تربط ماضينا بحاضرنا ، وتجعل منا أمة عربية واحدة ممتدة على امتداد التاريخ .

فما معنى هذا بالنسبة لفيلسوف التربية ؟ معناه أن يكشف جهده لتحليل الحياة الثقافية العربية المعاصرة ليرتد بها إلى جذورها ، لتكون هذه الجذور هى ما قد يسمى بفلسفة التربية العربية المعاصرة ، وهذا هو نفس ما فعله مفكرونا من قبل فعندما وجدوا أنفسهم فى مواجهة مشكلة التباين الظاهر بين ما أتى به الوحى من حقائق ، وما كان الإنسان قد توصل إليه بجهده العقلى الخالص ، أعملوا عقولهم وكثفوا أنشطتهم محللين ، منقبين ، إلى أن وصلوا نتيجة هذه الجهود إلى ألا تعارض بين المصدرين ، لأن الهدف النهائى لها واحد . وظهر هذا واضحا فيما كتبه ابن رشد بعنوان " فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال " .

أما المشكلة الأساسية التى يواجهها مربى اليوم ، فهى أنه يجد نفسه واقعا بين نارين لا يعلم كيف الخلاص منهما ؟ فمن أمامه نافذة تهب منها رياح الثقافة الغربية بألوانها المتعددة فى الأدب والفن والعلوم والسياسة والاقتصاد والفلسفة ، فيحس وكأنه متسول يمد يديه طالبا إحسانا [٢] ، فإذا ما تحركت بين جوانحه كرامته العربية ، وأبى أن يتزود بما ليس له فضل فى إيجاده ، وأدار وجهه إلى الوراء ماذا يده ليعب بها من معين آبائه وأجداده قانعا به لأنه

---

[١] زكى نجيب : تجديد الفكر العربى ، دار الشرق ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٩٧ .

[2] Holt, P.M.C. ed; Political and Social change in modern Egypt, Oxford University Press, London, 1968. p.270.

يكفيه السؤال ، سرعان ما يمسك القلق بتلابيبه ، فها هى مشكلات اليوم تتلاحق عليه وتحيط بـــه مـــن أمـــام ومن خلف ومن شمال وجنوب تعتصره اعتصارا ، فهل يجد فى معين آبائه وأجـــداده دائمـــا ما يستطيع أن يواجه به كل هذا ؟ إن الأمانة العلمية تفرض علينا أن تكون الإجابة هى بالنفى !

وهكـــذا يجـــد المربى منا نفسه فى غربة مدهشة ، فهو إن قذف بنفسه فى تيار الثقافة الغربية شعر بضآلة الشأن وصغر النفس ، وقلة جدوى الوجود ، وهو إن تبع تراث أجداده ، أصبح كمن يلوذ بشرنقة تعزله عن تيار الحياة المعاصرة المتصل الجريان [١] .

والمســـتقرئ لحياتـــنا الثقافية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، يلمس بوضوح تصدعا بهذه المشكلة التى نطلق عليها اليوم اسم " الأصالة والمعاصرة " ، وانقسم مثقفونا إلى ثـــلاث فـــرق : مـــنهم من فضل التمسك بما قاله الأسلاف وحده صاما أذنيه عن كل صوت حـــديث ، إلى الدرجة التى ظللنا فيها فترة غير قصيرة لا نطلق لفظة " العالم " إلا لمن حصل قـــدرا كافـــيا مـــن تراث الأسلاف ، وفريق اكتفى على العكس من ذلك بما يرد إلينا من علم حديث ، ناظرا باحتقار وازدراء إلى كل ما يصدر عن الأسلاف [٢] .

وفـــى اعتقادنا أن الطريقتين هما أسهل الطرق ، فما الصعوبة فى أن نجعل من أنفسنا نسخة مكررة مما فات ؟ وما الصعوبة فى أن نردد ما يقوله الغربيون مقلدين محاكين ؟ لكننا نســـأل : هـــل يمكن أن يصنع هؤلاء وهؤلاء ثقافة إسلامية معاصرة ؟ وبالتالى هل يمكن أن ننشئ تربية إسلامية معاصرة من هذه الثقافة ؟ كلا .. صحيح أن الفريق الأول إسلامى ، لكنه ليس عصريا . وصحيح أن الفريق الثانى عصرى ، ولكنه ليس إسلاميا !

إن العمل الذى يتطلب حقيقة جهدا شاقا ، هو كيفية المواءمة بين الاثنين ، بمعنى كيف ننشـــئ ثقافـــة تحـــتفظ بالقـــيم الأساســـية فى الثقافة الإسلامية بحيث لا تعوق حركة التطور الحضـــارى واتجاه التعصير ، وفى نفس الوقت تنفتح على ثقافة الغرب تمتص منه قوتها وما يدفعها إلى أمام ؟

إن هـــذا يتطلب منا دراسة تحليلية ناقدة لتراثنا الثقافى والتربوى لنستخرج منه أهم ما فـــيه ، ومعيار الأهمية ، هو مقدار ما يعيننا هذا الذى نختاره على مواجهة حياة اليوم وآمال

---

[١] تجديد الفكر العربى ، ص ٩ .

[2] Polical and Social change, p. 271.

الغـــد ، كما يتطلب أيضا تعرفا حقيقيا على إنتاج الغرب العلمى . ومن هنا تأتى ضرورة هذا البحث وأهميته . ذلك أنه خطوة على الدرب . محاولة يقوم بها رحالة عبر التاريخ الإسلامى لا ليستمتع بما كان فى سالف الأزمان ، ولكن ليلتقط كل حجر يعثر عليه مفيد فى عملية بناء التربية المعاصرة . نقول هذا ونؤكد عليه لأنه ما من مرة ، يبدأ فيها باحث اليوم يتلفظ بلسانه أو يخط بقلمه تاريخا ، حتى تسرع أصابع الاتهام بأن هذا " اجترار " و " بكاء على الأطلال " وعمـــل فكـــرى باطنـــى لن يحرك ولن يغير من أمر واقعنا شيئا ، فضلا عن أن يؤثر على مســـتقبلنا . فليس كل من يبحث فى موضوع من موضوعات اليوم بعصرى ، وليس كل من يـــبحث فى الأمس بمتحفى ، فربما أشار الباحث إلى الحاضر وعالجه ورسم خطوط المستقبل وهـــو يرص ألفاظا من قديم ويسير وفق دروب سنوات مضت ! ولربما اتجهت أنظار باحث إلـــى وراء ، وخطط لما يسهم فى الرجوع إلى هذا " الوراء " ، وهو يرص ألفاظا عصرية ، ويتصور أنه يسير وفق دروب اليوم والغد !! .

أولا : عهد الإبداع

الإسلام ، معين التربية الذى لا ينضب :

حمـــل إليـــنا تاريخ الفكر ، العديد من الفلسفات التى أفاضت فى الحديث عن التربية ، والكثيـــر من النظريات التى أشادت بالإنسان [1] ، " وعاء " العملية التربوية ، ولكن من حق الدين علينا أن نعلم أنه ، فضلا عن الدور الضخم الذى قام به فى تربية الإنسان تربية فعلية ، لا مجـــرد نظريات تخط على الصفحات ولا مجرد كلمات ترص بين بطون الكتب ، أن نعلم أيضـــا أنه نبه إلى بعض الأمور الأساسية التى لابد منها حتى تكون التربية " إنسانية " لا أية تـــربية . ولا تكون إنسانية حقا إلا بتحرير الإنسان نفسه ، وإلا فكيف يكون الفرق بين تربية الإنســـان وتـــربية أى نـــوع آخر من الأنواع الحيوانية الأخرى ، اللهم إلا فى الكم ؟ إن هذا يتضح لنا بالذات فى تلك القصة التى يرويها القرآن الكريم عن آدم عندما وجه سبحانه وتعالى إلـــيه الخطـــاب : يـــا آدم ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ! وهكـــذا تلقى أبو البشر أول قاعدة لتحرير الإنسان من العوز ، فلا عرى ولا جوع ، ولكن لا

---

[1] Ewing A . C .: The Fundamental Questions of philosophy, Routledge Kegan Paul , London , 1988 , P .99.

علـــى أن يأتى له ذلك وهو جالس مستريح ولكن بالعمل . و" بالمعرفة " فلا حياة بلا عمل ، ولا عمل بلا معرفة .

خطـــوة أخـــرى خطاهـــا الـــدين فـــى تربية الإنسان كانت أروع الخطوات ، وهى " التوحـــيد " . لقـــد مضى يحطم بالتوحيد كل حاجز بين الإنسان وبارئة ! نعم إن إعلان الإله الـــواحد ، كـــان الضربة القاصمة التى حطمت عن الإنسان أغلاله ، ومزقت قيوده ، وهوت بالمتألهـــين عن عروشهم الملحدة وقيل للإنسان يومئذ : قيل للرجل العادى : أنت وحدك ظل الله فـــى الأرض . . أنت خليفته . . أنت نفخة من روحه . . أنت شهبة من نوره . انهض ، هـــذا الكون لك ، اسع فيه متأملا مفكرا ، دارسا ، متذوقا . متمرسا ، متعلما . . . ليس بينك وبين الله وسطاء . . استعن بالله ولا تعجز [١] !!

ومضـــى رسل الله عليهم السلام ، كل فى إطار زمانه ، وكل بوسائله يمدون الإنسان بأطر وأساليب يصوغ بها نفسه ، يربى بها ذاته ، ليكون جديرا حقا بأن يكون خليفة الله على الأرض . وتجلجل كلمات عيسى فى المساكين :

– " الحـــق أقـــول لكم : إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله " ! فمـــاذا كان يعنى بالولادة من فوق ؟ كان يعنى أن يريقوا فى أنفسهم الخانعة كل مشاعر العزة والسمو والاعتداد حتى تترعرع من ذبول ، وتنتعش من خمول وتولد من علياء .

وتدوى كلمات محمد عليه السلام :

– إذا ذهـــب كســـرى ، فـــلا كســـروية بعـــده . . واذا ذهب قيصر ، فلا قيصرية بعده ، ولقد أظلكم من الله خير جديد [٢] . . . وترتفع الدعوة لنبى البشر . " كونوا ربانيين ، أى تـــربوا وفقـــا للقـــيم التـــى رسمها الله ، ودعا الرسول عليه السلام فقال " تخلقوا بأخلاق الله ... إن ربى على صراط مستقيم " .

وهكـــذا نستطيع القول بأن ظهور الإسلام كان بشير ثورة فى التربية الإسلامية . لقد جـــاء لينـــتقل بالبشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب . واعتبر المراحل والوسائل المؤدية إلى هذا الهدف ، صميم رسالته ، كما أنه عد الإخلال بهذه الوسائل خروجا علـــيه وابـــتعادا عنه [٣] .لقد سأل الرسول الكريم أصحابه يوما : " أتدرون من هو المفلس ؟

---

[١] خالد محمد خالد : الدين فى خدمة الشعب ، الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .
[٢] المرجع السابق . ص ١١ .
[٣] محمد الغزالى ، خلق المسلم ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ص ١٢.

قالـوا المفلس فينا من لا درهم ولا متاع . فقال المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسـناته ، وهـذا مـن حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطـرحت عليه ، ثم طرح فى النار [١]، وذلك هو المفلس : إنه كتاجر يملك فى محله بضائع بألف وعليه ديون قدرها ألفان ، كيف يعد هذا غنيا ؟ .

ومـن هنا كان قولنا أن الإسلام معين لا ينضب ، تستطيع التربية أن تغترف منه إلى ما شاء الله . فإلى أى حد نستطيع أن نجد فى الإسلام بالفعل قيما ومبادئ تعيننا على مواجهة حـياة العصـر ، وتمدنا بالوسائل المؤدية إلى معالجة المشاكل اليوم وآمال الغد ؟ هذا هو ما نسـتطيع أن نقـدم له فى الخطوط القلية القادمة ، على سبيل المثال لا الحصر ومن الزاوية التربوية البحتة :

الإشادة بفضل العلم وتقدير العلماء :

دفـع الإسلام العقول إلى مجال العلوم دفعا وفتح أمامها كتاب الكون على مصراعيه داعـيا إياها إلى التدبر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء لم يترك أمامها بابـا مغلقـا ولا احتجز دونها سرا مصونا . وقد نبه الله تعالى عباده إلى أن المعارف الكونية رحـبة الآبـاد ، واسعة الآفاق ، مترامية الأطراف : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله ﴾ [٢] .

وقد أمر الله ورسوله صلى الله علية وسلم بهذا الدعاء ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [٣] . وكـان من أدعية النبى المأثورة " اللهم إنى أسألك علما نافعا وعملا متقبلا " [٤] . وأخذ على الكافـرين أنهم يسارعون إلى التكذيب دون مدارسة أو بحث أو تمحيص ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِـيطُوا بِعِلْمِـهِ وَلَمَّـا يَـأْتِهِمْ تَأْوِيلُـهُ كَـذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِـينَ ﴾ [٥] . ولم يترك القرآن مجالا من المجالات الكونية دون أن ينبهنا إليه . ونستطيع أن نضرب بعض الأمثلة لميادين المعرفة التى فتحها أمامنا وحفزنا إلى ولوجها ، لأن الحصر يضيق عنه المجال [٦] .

---

[١] رواة مسلم .
[٢] سورة لقمان ، آية ٢٧ .
[٣] سورة طه ، آية ١١٤ .
[٤] رواه الطبرانى والترمذى .
[٥] سورة يونس ، آية ٣٩ .
[٦] على عبد العظيم : فلسفة المعرفة فى القرآن الكريم ، مجمع البحوث الإسلامية ، ١٩٧٣ ، ص ٥٨ .

١- النظـر إلـى المخلوقات عامة نظرة فلسفية عميقة : ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾ [١] . ووصف الله ذوى الألباب بأنهم هم ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [٢] .

٢- وصف الأجرام السماوية مما تناوله علم الفلك : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [٣] .

٣- وصف الأرض وما فيها من جبال وأنهار وسهول ووديان مما تناولته علوم الجغرافيا وطبقات الأرض ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ، وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [٤] . ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً ، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ، وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً﴾ [٥] .

٤- وصف تكوين الإنسان العقلى والجثمانى ، مما تناولته علوم الطب والنفس﴿ فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [٦] . ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [٧] .

٥- الصلات البشرية مما تناولته علوم الاجتماع : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [٨] .

احترام عقل الإنسان :

إذا كان الإنسان هو موضوع التربية ، فإن قيمة المصدر التربوى يمكن أن تقاس بمدى احترامه لعقل الإنسان حيث أنه هو الأداة التى يفهم بها ويتأمل ويتفكر . ومن مزايا

---

[١] سورة الأعراف ، آية ١٨٥ .
[٢] سورة آل عمران ، آية ١٩١ .
[٣] سورة يس ، آية ٣٧- ٤٠ .
[٤] سورة النبأ ، الآيتان ٦، ٧ .
[٥] سورة المرسلات ، الآيات ٢٥، ٢٧ .
[٦] سورة الطارق ، الآيات ٥ – ٧ .
[٧] سورة البلد ، الآيات ٨ – ١٠ .
[٨] سورة الروم ، الآيات ٢١ – ٢٣ .

القــرآن الكثيــرة – وهو مصدر الإسلام الأول [١] مزية واضحة ، تلك المزية ، هى التنويه بالعقــل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف . ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضــبة فــى ســياق الآية ، بل تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المفكر على إهمال عقله ويتولى الحجر عليه .

ولا يأتــى تكــرار الإشــارة إلــى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها علماء الــنفس ، بــل هــى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته [٢] .

وتطبيقا لهذه الفلسفة فى احترام العقل ، نهى الأئمة الأربعة عن الأخذ بقولهم من غير دلــيل وروى عــن أبى حنيفة أنه قال : لا يحل لأحد أن يأخذ قولنا ما لم يعلم من أين قلناه . وروى عــن أبــى يوسف أنه قيل له : إنك تكثر الخلاف لأبى حنيفة ، فقال : إن أبا حنيفة قد أوتى ما لم نؤت ، فأدرك فهمه ما لم ندركه ، ونحن لم نؤت من الفهم إلا ما أوتينا ولا يسعنا أن نفتى بقول ما لم نفهم من أين قال [٣] .

أهمية العمل ووجوبه :

وليست كلمة العمل بالكلمة الغريبة على المفردات القرآنية ، فقد ذكرها القرآن بكثرة ، وقرنها بالصلاة والزكاة والإيمان والإنفاق لأن الإسلام دين حياة : وعمل ، وهو كذلك لتوافقه مــع الطبــيعة البشرية . بل لقد جعل الإسلام العمل دليلا على صدق الإيمان ، ففى الحديث النــبوى المشهور " ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل " . وقد نوه القــرآن ببعض الصناعات الهامة على عهد نزوله بالنسبة للمجتمع الإسلامى تنويها يشير إلى عظيم أثرها وجليل فضلها .

– نــوه بصــناعة الحديــد ، حــيث يقول : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [٤] .

---

[١] سعيد إسماعيل على : مصادر التربية الإسلامية ، فى الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ، عالم الكتب ، ١٩٧٣ ، ص ١٧٥ .

[٢] عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، دار القلم ، القاهرة ، ص ١٠٥ .

[٣] السيد محمد رضا : تفسير المنار ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، جـ ٢ ، ص ٦٧ .

[٤] سورة الحديد ، آية ٢٥ .

– ونـــوه بصـــناعة التعدين حيث يقول : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ [١] ، أى النحاس المذاب الذى يستعمل فى صنع الجفان والقدور .

– ونـــوه بصناعة الكساء فى قوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشـــاً ﴾ [٢] ، وحـــيث يقـــول : ﴿ وَمِـــنْ أَصْـــوَافِهَا وَأَوْبَارِهَـــا وَأَشْـــعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ [٣] .

وفى الحديث الشريف : " إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة " . وفيه أيضا : " ومن طلب الدنيا حلالا وتعففا من المسألة وسعيا على عياله وتعطفا على جاره لقى الله روحه كالقمر ليلة البدر " .

حرية الإرادة الإنسانية :

ونحـــن لا نتذكـــر فـــيما قرأنا من تاريخ الإسلام أن الجدل فى حرية إرادتنا ظهر فى عصـــر الرسول ﷺ أو عصر خلفائه الراشدين ، بل لسنا نعلم أن المسألة شغلت جيل الصحابة وقد تلقوا القرآن بروح نقية ، فلم يفهموا من إرادة الله ، إلا أنها حكم نافذ وقرار عادل لا يلغى الإرادة الكســـبية للإنســـان ، ولا يعفيه من تبعة اختياره الحر لعقيدته وعمله ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ؟

وإنمـــا ثـــار الجـــدل فيها فى العصر العباسى وقد بعد العهد بالنظرة الإسلامية النقية والفكـــر الإســـلامى الصـــافى وشابت فهم المسلمين لكتاب دينهم شوائب دخيلة ، أضافت إلى الإسرائيليات والذهبيات والأذواق الأعجمية ما حملته الشعوب الطارئة على العربية والإسلام مـــن تـــراثها الفكرى والروحى فكانت مشكلة الجبر والاختيار من أعقد المشكلات التى بلبلت الأفكار وحيرت الألباب لشدة ما تدافعت فيها الأقوال وتصادمت الأدلة .

ومـــع أن الفـــرق الإســـلامية كلها عالجت المشكلة على أساس من النظر فى القرآن والســـنة إلا أنهـــا ما لبثت أن خرجت من ذلك النطاق ثم تلقفها من أراد أن يتخذوا الدين أداة لتبريـــر الأوضـــاع ، فتســـلطوا علـــى الجماهير يلحون على وجدانها بأن تدع الخلق للخالق ويحذرونها من غضب الله إن هى حاولت أن تغير واقعا أو تطمع إلى شئ من الحق والحرية

---

[١] سورة سبا ، آية ١٢ .
[٢] سورة الأعراف ، آية ٢٦ .
[٣] سورة النحل ، آية٨٠ .

والعدل فكل شئ مسير بقضاء الله وقدره لا حيلة لمخلوق فيه وكل متلقى مكتوب على جبين لا مفر منه فكان ما كان من ذيوع القول بجبرية الإسلام .

وهـذه آيـات القرآن تهدينا إلى أن العزم لنا وحدنا ما بقينا فى الدنيا والإرادة الكسبية إرادتنا وبهذه الإرادة الكسبية نختار لأنفسنا ما نختار متحملين مسئولية هذه الاختيار الحر [١].

النظرة التكاملية للإنسان :

ونظـرة الإسلام إلى الإنسان نظرة تكاملية اعترافا منه بأن دفعة الجسم القاهرة حقيقة فـيجب أن تأخـذ مكانها فى الصورة وأن إشراقة الروح المرفرفة حقيقة كذلك فيجب أن تأخذ مكانها الحقيقى فى الصورة ، والمكان الحقيقى لدفعة الجسم أنها هى التى تمد الإنسان بالطاقة الحية التى تعمل فى واقع الأرض وتمده بالرغبات التى تحرك مشاعره فى شتى الاتجاهات ، والمكـان الحقيقـى لإشراقة الروح أنها هى التى تمد الإنسان فطريا بعقائده وقيمه العليا التى تواجه الدوافع فى أثناء اندفاعها أو تحاول أن تمنعها من الشطط والإسراف [٢] .

وهذه المحاولة الدائمة هى رسالة البشرية وهى رسالة حقيقية يشهد بها كل التقدم الذى أحـرزته البشـرية فى نظمها وعقائدها وعلاقاتها ولا ينقص منها شيئا أن ترتد البشرية عنها أحـيانا وتنـتكس فذلك جانب من الاحتمالات الطبيعية للبشرية ولكنه ليس الاحتمال الدائم ولا الاحتمال الوحيد .

ثم .. حقيقة أخرى فى كيان الإنسان يبرزها الإسلام هى تعدد جوانبه ومن هذا التعدد تنشـأ حقيقـتان ، إحـدى الحقيقتين أنه لا يحدث فى أية لحظة من اللحظات أن ينحصر كيان الإنسـان فـى جانـب واحـد الجانـب الجسـدى أو الروحى أو الفكرى أو الاقتصادى أو المادى .. وإنما هو دائما شامل لأكثر من جانب شامل لكيانه كله فى الحقيقة [٣] .

والحقـيقة الثانية أن الإنسان لا يمارس أى نشاط من نشاطاته بجانب واحد من جوانبه ولـو كـان نشاطا متخصصا إلى أقصى حد .. فلا يقوم بنشاطه الجنسى بدافع الجنس وحده وإنمـا بمجموع كيانه ولا يقوم بنشاطه الاقتصادى والاجتماعى أو الفكرى أو السياسى بمعزل

---

[١] عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان ، دار المعارف ،القاهرة ،١٩٦٩ ، ص ١١٦ .
[٢] محمد قطب : دراسات فى النفس الإنسانية ، دار الشروق ، بيروت ، د.ت ، ص ٦٢ .
[٣] المرجع السابق ، ص ٦٤ .

عـن بقـية (كـيانه) ومن ثم تمتزج منه الروح بالجسد والقيم العليا بالضرورة القاهرة .. ويخرج من ذلك كله كيان هو الإنسان .

الدور التربوى والاجتماعى للمسجد :

وإذا كانـت هذه نماذج لقيم الإسلام ومبادئه ، فقد كان طبيعيا أن يسعى هذا الدين إلى إعادة تشكيل أفراده وفقا لها ، وكان طبيعيا كذلك أن تكون للإسلام " مؤسسته " الخاصة التى تتم فى رحابها عملية التشكيل هذه .. فكانت المساجد .

لـم يكن الباعث على بناء المساجد فى صدر الإسلام مقصورا على الأغراض الدينية وحـدها بـل كـان كذلك راجعا إلى أسباب سياسية واجتماعية . وكانت المساجد تستخدم منذ ظهـور الإسلام لاجتماع المسلمين فيها كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقرا لهم . ولما لم يكـن مـن الممكـن الفصل بين السياسة والدين أصبح المسجد المكان الذى تذاع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بالصالح العام [١] .

وإنشـاء المسـاجد ظاهرة معروفة فى خطط القواعد الإسلامية (الأولى) ، ولم يكن اتـباعها وليد المصادفة بل كان أثرا من آثار السياسة الموضوعة لإنشاء الأمصار الإسلامية فـى الـبلاد المفتوحة ، وهى سياسة ترجع إلى عصر عمر بن الخطاب ذاته ، كتب بها عمر إلـى الولاة بأن يتخذوا فى كل مدينة مسجدا للجماعة . واتبعت هذه السياسة فى خطط القواعد الإسـلامية الجديـدة يقوم فى وسطها المسجد الجامع وتقام من حوله خطط القبائل المختلفة . وكانـت هـذه المساجد الجامعة تحتل منذ البداية طابعا رسميا ، وكما أن العواصم الإسلامية الجديـدة كانـت تعتبر رمزا لظفر الإسلام فكذلك المساجد الجامعة كانت رمزا لسيادة الإسلام الروحية ومنبرا للدين الجديد والرسالة الجديدة .

وقـد ارتـبط تـاريخ التربية الإسلامية بالمسجد ارتباطا وثيقا ولعل السبب فى جعل المسـجد مركـز ثقافيا هو أن الدراسات فى سنى الإسلام الأولى كانت دراسات دينية تشرح تعالـيم الـدين الجديد وتوضح أحكامه ، وهذه تتصل بالمساجد أوثق اتصال . وكانت حلقات العلم تعقد فى مسجد قباء وهو أول مسجد بناه الرسول فى الإسلام كما كان من عادة الرسول ﷺ أن يجلس فى مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينه ودنياهم [٢] .

---

[١] خطط المقريزى ، الطبعة الأهلية ، ص ٤٠ .
[٢] أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين ١٦٠ ، ص ٥٢ .

ومـــن الوقائـــع الدالـــة على الدور الاجتماعى والسياسى للمسجد ما كان عليه الجامع الأزهـــر فى عهده الأول زمن الفاطميين فى مصر ، فعندما استقر الفاطميون بمصر لم يجدوا مهدا خصبيا لدعوتهم بل وجدوا مجتمعا متمدنا حركته الأحداث الدينية والسياسية فكان عليهم أن يتوســـلوا لغـــزوه بكل الوسائل السياسية والفكرية ، ومن هنا فقد أسندت رياسة الدعوة فى ذلك العهد إلى موظف كبير أطلق عليه اسم " داعى الدعاة " ويساعده اثنا عشر نقيبا وله نواب يـــنوبون عـــنه فـــى البلاد [١] . وكان داعى الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس مصنفاته فيحضر الرجال لا فى القصر فقط وإنما فى الأزهر كذلك بل كانوا يعقدون فى بعض الأحوال فى الأزهر مجلسا خاصا للنساء يسمى مجلس الدعوة يلقنهن فيه أصول هذا المذهب .

وكان الدخول لتلقى العلم فى المسجد كالدخول لأداء الصلاة أى أنه لم يكن مقيدا بقيود فلكـــل فرد الحق فى الاستماع لأى درس من الدروس ما دامت لديه الرغبة فى العلم والقدرة علـــى الفهم ، ولم تكن هناك شروط خاصة بالسن أو الجنس أو المؤهلات . وعلى الرغم مما لحـــق بالمجـــتمع الإسلامى من تطورات بعد ذلك لم يفقد التعليم فى المسجد خصائصه الأولى المميـــزة لـــه كالحـــرية فى اختيار مواد الدراسة وفى اختيار المدرس والتحرر من المؤثرات الماديـــة . وكان الأستاذ يختار له مكانا معينا فى جانب صحن الجامع حيث يجلس إليه طلابه علـــى بســـاط أو حصير مكونين حلقة يتصدرها الأستاذ وتختلف سعة الحلقة باختلاف مهارة العـــالم وشهرته ، وقد يكون بالمسجد الواحد عدة حلقات للدرس وعدة أساتذة ، ومن الأساتذة من خصص له راتب معين من الأوقاف المخصصة للمسجد ، ومنهم من لم يتقبل شيئا ابتغاء ثـــواب الله ، بينما عمل على كسب قوته بمزاولة مهنة أخرى بسيطة إلى جانب التدريس ، إذ اعتبـــر من أكبر الفضائل لديهم ألا يتلقى الأستاذ أجرا على قيامه بالتدريس ، أما الطلاب فلم يدفعـــوا أجـــرا فـــى الدراســـات العامة فى المسجد بل كانوا فى حالات كثيرة يتلقون الهبات والعطايا [٢] .

ويمكـــن القول بأن الدراسة بالمسجد كانت بمثابة " الدراسات الجامعية " حيث تسبقها مرحلة أولى فى " الكتاب " ولم يكن هناك ما يمكن تسميته بالمرحلة الوسطى .

---

[١] وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٦ .
[٢] أسماء فهمى : مبادئ التربية الإسلامية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ ، ص ٢٨ .

نشأة العلوم الدينية واللغوية :

أقبل الناس على القرآن يفهمون معانيه ويفسرون آياته ويستنبطون منه الأحكام وكذلك فعلوا فى الحديث . وقد بدأت هذه الحركة فى حياة الرسول ﷺ ثم أخذت فى الاتساع بعده وقام أصحابه بقسط وافر منها . وبديهى أن أصحاب الرسول كانوا مختلفين اختلافا كبيرا فى درجتهم العلمية كاختلافهم فى الفضائل الأخرى فكان بعضهم أشجع من بعض وبعضهم أكرم من بعض ، كذلك كان بعضهم أعلم من بعض [١] .

واشتهر من الصحابة ستة أو سبعة عدوا الطبقة الأولى فى العلم يختلف العادون فى بعضهم فيضعون واحدا مكان آخر ، وعد عشرون من الطبقة الثانية ونحو مائة وعشرين من الطبقة الثالثة ، ويطول بنا المقام لو عددنا أسماءهم وبينا نسبهم .

هؤلاء العلماء وأمثالهم من الصحابة تفرقوا فى الدولة الإسلامية فى جميع أنحائها وإن شئت فقل وزعوا على الأمصار قصدا إلى تعليمها ، فعل ذلك رسول الله فى مدن جزيرة العرب فأرسل إلى اليمن والبحرين وإلى مكة بعد فتحها وكذلك فعل عمر بن الخطاب عندما اتسعت الفتوح وكثرت الأمصار فكان أن نشأت حركة علمية غلب عليها الطابع الدينى .

وفى القرآن آيات كثيرة محكمة واضحة المعنى وهى التى تتعلق بأصول الدين وأصول الأحكام وخاصة منها الآيات المكية التى تدعو إلى أصول الدين كسورة الأنعام . وهذا النوع من الآيات يستطيع الجمهور فهمه ولا سيما من كانوا عربا بسليقتهم ، وفى القرآن آيات صعب فهمها ولم يصل إلى معرفتها إلا الخاصة ، وكان الصحابة على العموم أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم ولأنهم شاهدوا الظروف التى نزل فيها القرآن ومع هذا فقد اختلفوا فى الفهم على حسب اختلافهم وأدوات الفهم فبدأت علوم التفسير .

ويظهر أن تفسير القرآن كان فى كل عصر من العصور متأثرا بالحركة الثقافية فيه فلو تتبعنا ما نقل من الصحابة وصدر التابعين من تفسير وجدناهم يقصرون فى تفسير الآية على توضيح المعنى اللغوى الذى فهموه من الآية بأخصر لفظ ، فإن زادوا شيئا مما روى من سبب نزول الآية ثم زاد من بعدهم التوسع فى أخبار اليهود والنصارى ولا نجد فى التفسير عند هؤلاء أثرا من الاستنباط العلمى لحكم فقهى ولا انتصارا لمذهب دينى ، فلما جاء العصر

---

[١] أحمد أمين : فجر الإسلام ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٤٥ .

الـذى يلـيه وظهـر الكلام فى القدر ونحوه رأينا التفسير قد حمل هذه المذاهب . ولما نمت الحـركة الفقهـية وجدنا المفسرين من الفقهاء يتعرضون للآيات يذكرون ما يستنبط منها من الأحكام ، وقل مثل ذلك فى قواعد النحو والبلاغة وقواعد الأخلاق .

ولم تكن الأحاديث التى يقولها الرسول صلى الله عليه وسلم تدون فاستباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذبا إليه فروعت الفوضى التى حدثت فيه جماعة من العلماء الصادقين فنهضـوا لتنقية الحديث مما ألم به وتمييز جيده من رديئه وسلكوا فى ذلك جملة مسالك فكان بـذلك أن نشـأ علـم خاص بالحديث كان أوسع منبع للتشريع فى العبادات والمسائل الدينية والجنائية .

ويمكن القول بأن الفترة التى عاشها الرسول بعد الهجرة هى عصر التشريع حقا ففيها كـان ينزل القرآن بالأحكام وتصدر عنه الأحاديث مبينة لما يعرض من الحوادث ، وبعد وفاة الرسـول واتساع الدولة الإسلامية واجه المسلمون مسائل كثيرة فى كل شأن من شئون الحياة تحـتاج إلى تشريع لم يكونوا يحتاجون إليه وهم فى جزيرة العرب ولم يدع أحد أن فى القرآن والسـنة الصحيحة نصاً فى المسائل الجزئية على كل ما كان وما هو كائن ، فنتج عن هذا أن كان أصل آخر من أصول التشريع وهو " الرأى " الذى نظم فيما بعد وسمى القياس وأدى إلى إثراء التشريع الإسلامى بل وعده البعض البداية الحقيقية للتفكير الفلسفى فى الإسلام [١] .

كـذلك فعندما توفى رسول الله لم يعين من يخلفه ولم يبين كيف يكون اختياره فواجه المسلمون أشق مسألة وأخطرها [٢] ، وعلى طريق سيرهم فيها كان يتوقف نجاحهم فى الحياة السياسية أو فشلهم ، وكان الخلاف حول هذه المسألة هو المهد الذى ولدت فيه ثلاث فرق من أكبر الفرق الإسلامية وهى الخوارج والشيعة والمرجئة ، أشاعت الكثير من الخلافات الفكرية التى بذرت بذور علم الكلام وتعددت بعد ذلك الفرق إلى عشرات وعشرات .

وكـان مبدأ " طلب العلم " قراءة القرآن الكريم وحفظ آياته وفهم معانيه وهذا فى رأينا هـو مـبدأ التعلـيم وتوجيه جديد للتربية فى تاريخ الإسلام ونثبت ذلك بالرجوع إلى حقيقتين تاريخيتـين ، الأولى تدوين القرآن ونشره ، والثانية عمل القراء حفظة القرآن الكريم فى نشر

---

[١] سعيد إسماعيل : مشكلة المنهج فى دراسة التربية الإسلامية ، الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ، دار الثقافة ، ١٩٧٥ ، ص ٥٩ .

[٢] زكى نجيب محمود : المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى ، دار الشروق ، بيروت ، د.ت ، ص ٢٩ .

العلـــم والتعلـــيم ، وإننا نعد القراء أول المعلمين فى تاريخ الإسلام لأنهم كانوا يعلمون الناس قـــراءة القرآن أو استظهاره . وعلى هذا فتدوين القرآن يعد من أهم الأعمال الدينية فى تاريخ الإســـلام لأن استشـــهاد كثير من القراء فى الحروب ترك مجالا للاختلاف فى الرواية فكتب القـــرآن فى زمن عثمان وأرسلت منه النسخ إلى الأمصار وكان هذا من بواعث حركة طلب العلم والاهتمام بالكتابة .

وإلـــى جانب تعلم القرآن خضع التعليم لجانب آخر هو تعاليم الإسلام وعادات العرب وأساســـها الأمـــر بالمعروف والنهى عن المنكر والمروءة وضبط النفس والكرم والعفو عند المقـــدرة . واعـــتمدت التربية فى المقام الأول على أسلوب القدوة والمحاكاة . وإذا قيس نظام التربية والتعليم بنتائجه جاز القول أن المبادئ البسيطة التى سادت عصر الخلفاء الراشدين فى هذا الباب نشأ عنها خير النتائج . صحيح أنها لم تنتج العلماء لكنها أنتجت الرجال الكبار [١] .

أمـــا فـــى العهـــد الأموى فقد ظهر المعلم المحترف وظهرت الرغبة فى طلب العلم الدنـــيوى ابـــتغاء لمـــنافع دنيوية لا ابتغاء لوجه الله فقط ، وفى هذا ما يدل على اتساع نطاق التعليم فى دور بنى أمية عما كان عليه فى زمن رسول الله والخلفاء ، وذلك طبيعى أولا لأن حياة العرب فى خارج الجزيرة كانت حياة مدنية تتطلب القراءة والكتابة ، وثانيا لأن بنى أمية ناصـــروا السيادة العربية أكثر من مناصرتهم السيادة الإسلامية فكان لابد لهم من الالتفات إلى الدنيا أكثر من الالتفات إلى الدين .

ثانيا – عهد النمو

التفاعل الثقافى بين الحضارة العربية والحضارات السابقة :

ولـــم تتـــبادل الجماعة الإسلامية فى المرحلة السابقة ، مع العناصر ذات الثقافة غير الإســـلامية – التى كانت تعيش معها وفى داخل الدولة الإسلامية السياسية – الحديث فى ثقافة الـــوقت ولا فى الديانة الجديدة : وهى الإسلام ولا فى منزلة هذه الديانة من الديانات السابقة ، كما لم تشترك معها فى مجالس العلم أو الجدل ، ولذا كان تفكيرها ذا طابع خاص هو : طابع البساطة والصراحة والبعد عن الطابع الفلسفى فضلا عن أنه عربى محض [٢] .

---

[١] عبد اللطيف الطيباوى : محاضرات فى تاريخ العرب والإسلام : دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥ .
[٢] محمد البهى : الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى : دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٧٢ .

وهـنا فى المرحلة الثانية لتطور الثقافة العربية ومنذ القرن الثانى الهجرى على وجه التحديد ، نـرى ظاهرة أخرى للجماعة الإسلامية تكاد تكون على الضد من الظاهرة السابقة هـذه الظاهـرة الجديدة هى ظاهرة الاختلاط والاشتباك فى الحديث وفى المجالس العلمية فى الجدل مع العناصر ذات الثقافة غير الإسلامية .

والجماعـة الإنسـانية لا تنـتقل من ظاهرة إلى نقيضها فجأة وبالأخص فى المظاهر العقلـية بـل بـين الظاهرة السابقة لجماعة ما والأخرى اللاحقة لها تدخل الجماعة فى حال تخـتلف فـى القـرب أو الـبعد من إحدى الظاهرتين وتكون هذه الحال المرددة أشبه بحال الانتقال .

فـإذا اتخـذنا القرن الثانى الهجرى بدءا للمرحلة الثانية التى لها مظهر خاص يختلف عـن مظهـر المرحلة السابقة ، فليس معنى ذلك أن القرن الثانى بدايته تنطبق عليه ظاهرته بنسـبة واحدة ، وكذلك القرن الأول فى نهايته تنطبق عليه ظاهرته الخاصة به بالنسبة عينها التى كانت لبدايته أو وسطه مثلا .

فالجماعة الإسلامية أخذت فى أواخر القرن الأول تخرج عن عزلتها فعملت على رفع الحـواجز ثـم وجـدت من الدوافع ما شجعها على الاختلاط عن طريق الأحاديث الشفوية فى المجالس مع أرباب الثقافات الأجنبية ، ثم ما حملها فوق ذلك على نقل هذه الثقافات وترجمتها إلـى اللغـة العربية - والظاهرة تعطى لجماعة من الجماعات الإنسانية إذا تم تكون الظاهرة وبـدت سـيطرتها على الجماعة ، ولا يكون ذلك فى الفترة التى تعد فترة تمهيدية لها أو فيما يسمى حال الانتقال من ظاهرة إلى أخرى .

ويمكـن إجمـال البواعث التى دفعت العرب إلى رفع الحواجز بينهم وبين الحضارات الأخرى فيما يأتى [1] :

١- احتكاك العرب بغيرهم من الأمم أطلع العرب على ثقافات جديدة فأحب العرب أن يوسـعوا بهـذه الـثقافات آفاقهم الفكرية ولعل ذلك كان فى أول الأمر عاملا التقليد المحض نلاحظه عند بداية التفاعل الثقافى بين حضارة وأخرى .

---

[1] عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١١٢ .

٢- حاجة العرب إلى علوم ليست عندهم مما كانوا يحتاجون إليه فى الطب وفى معرفة الحساب والتوقيت لضبط أوقات الصلوات وتعيين بدء أشهر الصوم والحج وأول السنة .

٣- القرآن الكريم وحثه على التفكير وطلب العلم .

٤- العلم من توابع الحضارة حيثما تزدهر البلاد سياسيا واقتصاديا ويكثر فيها الترف ويستبحر العمران تتجه النفوس إلى الحياة الفكرية والتوسع فى طلب العلم .

٥- رعاية الخلفاء للنقل والنقلة فقد كان الخلفاء يدفعون للناقل ثقل الكتاب المنقول ذهبا ، ثم إن الخليفة المأمون أنشأ (بيت الحكمة) وجمع فيه الناقلين فأصبح نقل الكتب الفلسفية جزءا من سياسة الدولة وكان ثمة أسر وجيهة غنية محبة للعلم تبذل الأموال فى سبيل الحصول على الكتب وفى سبيل نقلها فإن آل المنجم كانوا ينفقون خمسمائة دينار فى الشهر على نقل الكتب .

٦- وزعم بعضهم أن حب السريان لثقافتهم وحرصهم على نشرها حملاهم على نقل الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية ، ولا وجه لهذا الزعم لأن الكتب المنقولة لم تكن سريانية مسيحية بل وثنية يونانية أو هندية . ثم إن هؤلاء النقلة السريان لم ينقلوا هذه الكتب تطوعا وابتداء من عند أنفسهم ولاهم نقلوا الكتب التى أحبوا نقلها بل كانوا ينقلون ما يطلب منهم نقله بأجر .

أما الأمم التى نقل العرب عنها وتفاعلوا مع حضارتها فهى [١] :

الفرس : فقد كان للفرس آدابهم وفنونهم كما كان عندهم علوم الأمم السامية السابقة التى سكنت العراق كالبابليين والأشوريين ، وكذلك علوم الإغريق التى كانت قد انتقلت إلى بلاد فارس عن طريق السريان ، وقد نقل العرب والفرس الذين تعلموا العربية كثيرا من كتب الآداب الفارسية والتاريخ والنظم .

الهنود : وقد نبغ الهنود فى حساب وعلم النجوم وتجارب الطب كما نبغوا فى بعض الصناعات لطبع السيوف ونقل العرب علوم الهند كالحساب وحركات الكواكب وبعض طرق حلول المسائل الفلكية وبعض الأزياج (جمع زيج وهى الجداول الفلكية) .

---

[١] أبو الفتوح رضوان : القومية العربية ، دار الثقافة ١٩٦٤، القاهرة ، ص ١٩٤ .

المصريون : وقد كان عند المصريين فنونهم وصناعاتهم خصوصا فن العمارة والصناعات الدقيقة ، وكان فى مصر علوم الإغريق فقد كان بالإسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح العربى نهضة علمية حاولت بها الإسكندرية أن تستعيد مكانتها السابقة كمركز للعلوم الإغريقية كما أخذ العرب كثيرا من النظم التى كانت سائدة فى مصر خصوصا تنظيم الدولة ودواوين الحكومة وحساباتها .

اليونان : فقد انتشرت علوم اليونان وفلسفتهم فى الشرق بعد فتح الإسكندرية ثم عندما اضطهد أباطرة الرومان المسيحيون علوم اليونان على فلسفة الإغريق وعلومهم وقد ترجم العرب هذه العلوم .

أما من حيث المواقع التى كانت مركز الالتقاء الحضارى فالأستاذ ماكس مايرهوف [١] يقدم لنا بحثا عن انتقال العلم اليونانى إلى العالم العربى ، وقد أثبت فى مطلع بحثه أن مدرسة الإسكندرية كانت لا تزال قائمة وقت أن فتح العرب مصر وكانت تبعا لهذا المدرسة اليونانية البحتة الوحيدة فى البلاد التى غزاها العرب فى دفعتهم الأولى ، ثم ينقل عن الفارابى قوله : انتقل التعليم (بعد ظهور الإسلام) من الإسكندرية إلى إنطاكية وبقى بها زمنا طويلا إلى أن بقى معلم واحد ، فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب فكان أحدهما من أهل حران والآخر من أهل مرو . وكما وجدت مدارس علمية وفلسفية فى الإسكندرية وإنطاكية وحران لم يمسها المسلمون بسوء وجدت مدارس فلسفية وعلمية فى (الرها) و(نصيبين) و (المدائن) و (جند يسابور) يشرف عليها أساتذة نسطوريون .

والسؤال الذى يبرز لنا هنا : أى أنواع الثقافات كان أكبر أثرا وأشد نفوذا وأقوى سلطانا ؟ الإجابة المطلقة على هذا السؤال عسيرة . فقد كان لكل ثقافة (منطقة نفوذ) لا تكاد تزاحمها فيها الثقافة الأخرى [٢] ، فطبيعة الثقافة اليونانية عقلية منطقية تحاول أن تجعل لكل شىء مقدمات ونتائج ، وهذا الضرب تجلى عند العرب فى الرياضيات والفلسفة وما إليها وأتت هذه الأشياء فى العهد العباسى ومواضعها خالية تقريبا فكان من السهل أن تصطبغ بالصبغة اليونانية من غير مزاحمة . وطبيعة الثقافة الفارسية على ما وصلت إلينا فلسفة عملية من حكم تصاغ حول العدل والظلم ونظام الحكم ونحو ذلك مما تراه فى الأدب الكبير والصغير لابن المقفع ، فليس فيها مجال كبير للنظريات كما هو الشأن عند اليونان ولكن

---

[١] على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، دار المعارف ، ج١ ، ١٩٦٥ ، ص ٧٠.
[٢] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، النهضة المصرية ، ج ١ ، ١٩٥٦ ، ص ٣٩٦ .

تجارب عملية تجرب فتصاغ فى قالب حكمة أو مثل ، وهذا النوع استساغه العرب فى أدبهم لأنــه أشــبه بأمثالهم ، وطبيعة الثقافة الهندية مزيج من حكمة كالتى قلنا فى الفرس تتجلى فى مــثل كليلة ودمنة ومن نظريات فلسفية ورياضية كالتى عند اليونان ، ولكن يلاحظ البيرونى أنهم لا يجيدون تعليلها ولا البرهان عليها كما يفعل اليونان .

وطبــيعة الــثقافة العربية الأدبية لسانية أبين الأشياء فيها ، جمالها الفنى ، وأنها بنت الــبديهة ونتيجة السليقة ووليدة الفطرة وهذا هو السبب فيما حكى الجاحظ إذ يقول " وقد نقلت كتب وترجمت حكم اليونان وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسنا وبعضها ما انتقص شيئا ولــو حــولت حكمة العرب لبطل ذلك (المعجزة) الذى هو الوزن على أنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئا لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم " [١].

ازدهار العلوم الطبيعية والرياضية (الفنون والصناعات) :

تجمعــت إذن الظروف الداخلية مع المؤثرات الخارجية لتشكل فى تفاعلها مناخا طيبا أتــاح الفرصة لازدهار ثقافى لم يعرف التاريخ قبل ذلك له مثيلا . ولكى نوفى هذا الموضوع حقه فإن هذا يحتاج إلى عدة كتب فنجتزىء بعض المظاهر :

ففــى مجال (**الطب**) نجد أن التقاليد حدت من ممارسة تشريح الجثث الآدمية فتحجر علمــا التشريح والفسيولجيا فى القالب الذى صبهما فيه جالينوس وأبقراط ، ولكن النزعة التى يمــتاز بهــا الشــرقى وميوله الفكرية اجتذبته نحو أربعة اتجاهات أولها الملاحظة الإكلينيكية الدقــيقة والتدريس إلى جانب السرير بالمستشفيات . ثانيهما الكيمياء التى بلغ رائدها جابر بن حــيان القمــة بهــا . ثالثهما علم النبات وخواصها حيث أضاف العرب إليه الكثير . رابعها تحســين وتنظيم المستشفيات التى ورثوا فكرتها عن بيزنطة ، وهذه الصفات الأربع بالإضافة إلــى فضــل العــرب فــى الحفاظ على التراث القديم وفى إتاحته لعلماء النهضة الغربية هى المميزات التى جعلت من الطب العربى سراجا وهاجا أضاء العالم قرونا عدة [٢] .

فــى **العلــوم الطبيعية** يذكر(ديورانت) أن كتاب المناظر فى البصريات لابن الهيثم " أعظــم مؤلــف فــى العصــور الوسطى بأجمعها جرى على الأسلوب العلمى فى طريقته وتفكيــره " [٣] . وقد درس ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره فى الأوساط الشفافة كالهواء

---

[١] المرجع السابق ص ٤٠١.
[٢] بول غليونجى : ابن النفيس ، أعلام العرب (٥٧) مكتبة مصر ، د.ت ، ص ٥٨ .
[٣] ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٢ ، م ٤ ، عصر الإيمان ، ترجمة محمد بدران ، لجنه التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٤ ، ص ٢٧٥.

والمـــاء واقترب مع اختراع العدسة المكبرة مما جعل روجر بيكون و (وينلو) Wnelo من الأوربيـــين بعد ٣٠٠ عام من ذلك الوقت يعتمدون على بحوثه فيما بذلوه من الجهود لاختراع المجهـــر والمرقب . وقد رفض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس الفلكى القائلة بأن رؤية الجســـم تنشـــأ مـــن خروج شعاع ضوئى من العين تصل إلى الجسم المرئى وقال إن صورة الجسم المرئى تصل إلى العين ومنها تنتقل بوساطة الجسم الشفاف إلى العدسة .

وهـــناك اختـــراع ذو بـــال ينســـب إلـــى الإفرنج وهو للسلمين نعنى اختراع البارود فالمشهور عند الإفرنج أن مخترع البارود اسمه (شوارتز) سنة ١٣٢٠م (٧١٩هـــ) ولكن روجـــر بيكون أشار إلى مزيج من قبيل البارود كان شائعا فى أيامه . والصحيح أن المسلمين أســـبق الـــناس إلى استخدام البارود وإذا لم يكونوا اخترعوه فلا أقل من أنهم أوصلوه إلى ما عرف به الأجيال الوسطى . فقد ذكر (كوندى) المستشرق الأسبانى المتوفى سنة ١٨٢٠ أن أهل مراكش استخدموا الأسلحة النارية فى محاربتهم سر قوسة عام ١١١٨ م [١] .

- واكتشـــف فى عشرينات هذا القرن مخطوط عربى قديم يرجع عهده للمائة التاسعة الهجـــرية القـــرن ١٥ الميلادى للملاح العربى ابن ماجد يعتبر أهم وثيقة فى الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الإطلاق ، وتنحصر أهميته فى أنه أقدم الوثائق الجـــيدة التى وصلتنا عن الملاحة وفنون البحر فى البحار الجنوبية ، كما أنه يرد فيه ذكر اسم لعلـــم جديـــد هـــو " علم البحر " بمعناه الواسع مما نعرفه اليوم باسم علم الاكيانوغرافيا [٢] Occeonography .

- والمســـلمون هم الذين صنعوا الصابون لأول مرة ، كانوا يعملون فيه صنفين صنفا مـــن الصـــودا وصـــنفا آخـــر أبـــيض اللون من البوتاس وقد ذكره ابن دريد سنة ١٩٣٣م . والســـلمون هم الذين أدخلوا السكر المصنوع من القصب فى أوربا ، وكان الهنود هم أول من زرع قصب السكر واستنبطوا منه السكر ، ومن الهنود انتقل إلى فارس فى القرن السابع ومن ثم عرفه العرب لما استولوا على فارس فقاموا بالتوسع فى زراعته فى جميع المناطق المعتدلة المـــناخ فـــى أنحاء الدولة الإسلامية المتزامنة الأطراف . والورق اكتشفه الصينيون لكنه لم يـــدخل الغـــرب ولم تعرفه أوربا إلا عن طريق المسلمين ، كذلك برع المسلمون فى كثير من

---

[١] جرجى زيدان : تاريخ التمدين الإسلامى ، ج ١ دار الهلال ، د.ت ، ص ٢٠١

[٢] أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، أعلام العرب (٦٣) دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٥ .

الصناعات القائمة على الكيمياء فاستخرجوا الذهب بطريق الغسل وقطروا الزئبق من الزنجفر وصنعوا الصلب واستخلصوا العطور بتقطير الورد وصنعوا ألوان الحبر المختلفة [١].

وقد لا يصدق بعض الذين يعنون بالعلوم الرياضية أن " ثابتا بن قرة " من الذين مهدوا لإيجاد التكامل والتفاضل ، وقد لا يخفى ما لهذا العلم من أهمية على الاختراع والاكتشاف فلولا إنتاج هذا العلم ولولا التسهيلات التى أوجدها فى حلول كثير من المسائل العويصة والعمليات الملتوية لما كان بالإمكان الاستفادة من بعض القوانين الطبيعية واستغلالها لخير الإنسانية [٢] .

اتجاهات التعليم وملامح الفكر التربوى فى عهد الازدهار :

وكان لهذا كله بطبيعة الحال أثره على التربية والتعليم ، فلم يكتف الناس بآثار العرب ومثل الإسلام ، بل أراد كل متعلم أن يكون له نصيب من الثقافات الجديدة ، فالمعلم الذى كان يقصر همه على تعليم القراءة والكتابة والحساب وشىء من الأخبار والقصص أصبح لا شأن له ، وصار الناس يتطلعون إلى المعلم الكبير الذى يعرف القرآن والحديث كما يعرف اللغة والأدب وكما يعرف الفلسفة والكيمياء . هذا هو الاتجاه العام ، ولكن كان يحدث أن تعادى فرقة نوعا من أنواع العلوم وتجارب أصحابه وتجرب أن تقضى عليه بواسطة سلطان الدولة أو غيرها .

ويظهر أن التعليم أصبح علاقة روحية بين المتعلم والمعلم وأن من أغراضه أن ينال المتعلم قسطا كافيا من الثقافة العامة لا نوعا خاصا من المعرفة والبحث فى الأجور التى يأخذها بعض المعلمين لا يمنع من صحة هذا الرأى لأن الأجور كانت مسألة شخصية تتوقف على المعلم وحاجته إلى المال ورغبته فى جمعه [٣] .

ويظهر أيضا أن التعليم كان خاصا لا عاما بمعنى أن الأسلوب والمادة والنتيجة كانت كلها تتوقف على مقدرة المعلم وثقافته واستعداد تلميذه لا على شىء آخر مثل الرقابة التى تقوم بها الدولة أو غيرها أو البرامج التى تضعها بعض المدارس أو الشهادات التى

---

(١) عبد الرحمن بدوى : دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى ، الأنجلو المصرية ، ١٩٦٧، ص ٣٧- ٣٨.
(٢) تدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٦٨.
(٣) عبد اللطيف الطيباوى ، ص ٣٣ .

تصدرها ، إذ نعرف على سبيل التحقيق أن الدولة لم تقم على مراقبة التعليم ولم تضع البرامج ولم تصدر الشهادات باسمها أو باسم ديوان من دواوينها .

والحق أن تعليم البنات لم يكن شائعا كشيوع تعليم الذكور ولكن المصادر تذكر عددا كبيرا من المتعلمات الصالحات أو بعضها يذكر اختلاف البنات إلى مكتب المعلم وبعضها الآخر يذكر اختلافهن إلى مدرسة ، ولكن الظاهر أن كثرة اللواتى نلن قسطا من المعرفة والعلم كن يتعلمن بصورة خاصة فى بيوتهن أو فى أماكن شبيهة ببيوتهن وقد وصلتنا أخبار عدد كبير من النساء اللواتى اشتهرن بالعلم والزهد والشعر ، فعائشة أم المؤمنين تعتبر من أهم مراجع الحديث الشريف ورابعة العدوية الزاهدة المتصوفة فاقت الرجال بزهدها وتصوفها، وعلية بنت المهدى كانت تحسن قول الشعر وتلحينه .

وظهرت المدارس فى هذا العهد أيضا ، يقول المقريزى " أن المدارس مما حدث فى الإسلام ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين و إنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنة الهجرة " [١] ، وعلى رواية الذهبى أن أول من أنشأ المدارس فى الإسلام هو نظام الملك الذى وزر للسلاجقة فى النصف الثانى من القرن الخامس للهجرة ، ولكن بعض المؤرخين كالسبكى والسيوطى يقرون أن المدرسة البيهقية قد أسست بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك وأن المدرسة السعدية قد أسست بالبلدة نفسها على يد الأمير نصر بن سبكتكين أخى السلطان محمود المشهور قبل تأسيس مدارس نظام الملك [٢] .

- أما عن ثمرات الفكر التربوى الإسلامى فى ذلك الوقت فيمكن أن تجمل الإشارة إلى بعضها فيما يلى :

١- ذهب ابن سينا إلى أن الإنسان قد ولد على الفطرة وأنه ليس خيرا بطبعة أو شريرا بطبعة وإن كانت نظرته أقرب إلى الخير منه إلى الشر ، وهذا الإنسان يتغير ويتشكل وفق مؤثرات البيئة ونظمها التربوية ، وإذا تعود الشر أصبح شريرا وإذا تعود الخير أصبح خيرا ، وفى ذلك يقول " فإذا فطم الصبى عن الرضاع بدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة فإن الصبى تتباعد إليه مساوى الأخلاق وتتثال عليه العادات الخبيثة فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطيع له مفارقة ولا عنه

---

[١] المرجع السابق ص ٧٦ .
[٢] المرجع السابق .

نزوعا " [١] . ويؤكد ذلك فى موضع آخر فيقول : " والأخلاق كلها ، الجميل منها والقبيح هى مكتسبة ويمكن للإنسان متى لم يكن له خلق حاصل أن يحصله بنفسه ومتى صادفت أيضا نفسه على خلق حاصل جاز أن ينتقل بإرادته عن ذلك إلى ضد ذلك الخلق [٢] . ورأى ابن باجه أن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ ما يصبو إليه من المعرفة والحياة السعيدة إلا بالأفعال الصادرة عن الروية وبتنمية العقل تنمية حرة خالصة من القيود ، والفعل الحر الاختيارى هو الذى يصدر بعد الفكر والروية أى هو فعل يشعر فاعله بغاية يقصدها منه ، فمثلا إذا حطم الإنسان حجرا لأنه عثر به فهو يفعل فعلا لا غاية وراءه وهو يشبه فعل الطفل أو الحيوان إذا حطمه لكى لا يعثر به غيره ، ففعله إنسانى ويمكن أن نسميه صادرا عن العقل يقول : " وكل ما يوجد للإنسان من الأفعال المختصة به مما اختص به من طباعه المتميزة عما سواه فهو بالاختيار وعنى بالاختيار الإرادات الكائنة عن روية " [٣] .

– ومن المعايير التى كان المسلمون يختارون فى ضوئها ما يتعلمونه وما يعلمونه ، قيمة المادة من حيث أثرها التدريبى أو قيمتها فى إكساب عادات عقلية خاصة تنتقل إلى ميادين أخرى غير ميدان المادة الخاص الذى تكونت فيه أول الأمر فيقال عن المنطق مثلا " إنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر " أو " أنه أصل كل علم وتقويم كل ذهن " [٤] .

وفى قول الفارابى عن وظيفة المنطق أوضح مثال للقيمة التدريبية للمادة فهو يذكر أن صناعة المنطق تعطى جملة القوانين التى من شأنها أن تقوم العقل وتسدد الإنسان نحو طريق الصواب ونحو الحق فى كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات والقوانين التى تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل والغلط فى المعقولات .. أما من زعم أن الدربة بالأقاويل والمخاطبات الجدلية أو الدربة بالتعليم مثل الهندسة والعدد تغنى عن علم قوانين المنطق أو تقوم مقامه أو تفعل فعله أو تعطى الإنسان من القوة على امتحان كل قول وكل حجة وتسدد إلى الحق واليقين حتى لا يغلط فى شئ من سائر العلوم أصلا ، فهو مثل من زعم أن الدربة

---

[١] المرجع السابق .
[٢] المرجع السابق .
[٣] ت . ج . دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ج ٣ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ص ٢٨٥ .
[٤] مبادئ التربية الإسلامية ، ص ٧٧ .

والارتـباط بحفـظ الأشـعار والخطب والاستكثار من روايتها يغنى فى تقويم اللسان وفى ألا يلحن الإنسان من قوانين النحو يقوم معا بها " [١] .

- نص ابن خلدون على ضرورة وقوف المربى على قصور عقل الطفل وعدم اكتمال نضـجه وهـى حقـيقة يظهر أن معلمى عصره أهملوها فى طرق تدريسهم فهو يقول " وقد شـاهدنا كثيـرا من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون المتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلوم ويطالبون ذهنه فى حلها ويحسبون ذلك مرانا على المتعلم وصوابا فيه فإن قبول العلم والاستعداد فيه ينشأ تدريجيا فيكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال بالأمثلة الحسنة ، ثم لا يزال الاسـتعداد فيه يتدرج قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذى نعرفه حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحصيل " [٢] .

أثر الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية الحديثة :

يقـول لوبـون " كلما أمعنا فى درس حضارة المسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفـنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة ولمسرعان ما رأينا المسلمين أصحاب الفضل فى معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون مـوردا علميا سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوربا مادة وعقلا وأخلاقا وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه فى وقت قصير وإنه لم ينفعهم قوم فى الابتداع الفنى " [٣] .

وتشارك المستشرقة الألمانية (هونكه) لوبون فى رأيه فتؤكد أنه من خطل الرأى أن ينظـر الغربيون إلى أوربا على أنها هى وهى فقط العالم الحديث ، ومن الحماقة أن يقول أن تـاريخ أوربـا هـو تاريخ هذا العالم ... إن أوربا كما تؤكد هونكه تدين للعرب وللحضارة العربية وأن الدين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جدا [٤] .

ومن الأمثلة التى سبقت فى هذا الشأن القانون الآتى فى المثلثات : جتا س جتا ص = ½ جـتا (س + ص) + ½ جـتا (س - ص) ، إذ يقول العلامة Suter " وقد كان لهذا

---

[١] الفارابى : إحصاء العلوم ، القاهرة ، ١٩٣١ ، ص ١١ - ١٦ .
[٢] ابن خلدون : المقدمة ، طبعة الشعب ، القاهرة ، ص ٤٩٤ .
[٣] جوستاف لبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦ .
[٤] سيجريد هونكه : شمس الله تشرق على الغرب (فضل العرب على أوربا) ، ترجمة فؤاد حسنين على ، النهضة العربية ، ١٩٦٤ ، المقدمة .

القانـــون أهمـــية كبرى قبل كشف اللوغاريتمات عند علماء الفلك فى تحويل العمليات المعقدة (لضرب) العوامل المقدرة بالكسور الستسنية فى حساب المثلثات إلى عمليات (جمع) [١] .

وســـاعد علـــى نشـــر الصـــيدلة فـــى أوربا ، قرب صقلية من أوربا أولا ، وترجمة قســـطنطين الإغـــريق للكثيـــر من كتب الطب العربية ثانيا ، ولم يقف أثر هذه النهضة على صـــقلية وجـــنوب إيطاليا بل بلغ وادى الرين كما هو ثابت من مؤلفات هيلد جاردفون رينجن Hilldegard Von Ringen ، وبعـــد وفاة قسطنطين بزمن قصير نجد عميد مدرسة سالز وهـــو (نـــيكولوس بريبورســـتيوس) Nicolaus Praepositus يضع كتابا فى المواصفات العلاجية على غرار الكتب العربية وظل هذا الكتاب مستعملا لأجيال كثيرة من الصيادلة الذين ظهروا فيما بعد [٢] .

ويذكر لوبون أن الرازى وضع آثار من ظهر قبله من الأطباء على محك النقد الشديد فوق فراش المرض ، وكان ما كتبه فى بعض الحميات ذات البثور كالحصبة والجدرى معول الاطباء زمنا طويلا ، وأشهر كتبه ، كتاب (الحاوى) الذى جمع فيه صناعة الطب وترجمت أكثـــر كتبه إلى اللغة اللاتينية وطبعت عدة مرات فى البندقية سنة ١٥٠٩ م وفى باريس سنة ١٥٢٨ وسنة ١٧٤٨ وظلت جامعات الطب فى أوربا تعتمد على كتبه زمنا طويلا .

ومـــن العـــرب الذين عرفتهم أوربا فى علم الفلك (الخوارزمى) فإن الألواح الفلكية التـــى وضعها ، قد ترجمها إلى اللاتينية ادهردأوفباث Adehard of Bath سنة ١١٢٦ م ، كـــذلك أبا العباس أحمد بن كثير الفرغانى وله فى الفلك كتاب كان ذا أهمية بالغة فترجمه إلى اللاتينية خوان الاشبيلى و (جيررود الكريمونى) كما ترجمة إلى العربية يعقوب الأناضولى ونشرت الترجمة اللاتينية مع النص العربى فى امستردام سنة ١٦٦٩ م [٣] .

أمـــا الجهـــد العربـــى الثقافى فى إرساء دعائم منهج البحث العلمى الحديث وخاصة التجريبـــى ، فجهد ملحوظ وواضح ، فابن تيمية يؤمن بالجزئيات ويرى أن المنطق القياسى لا يصـــل إلـــى شـــئ واقعى وينتهى إلى القول بأن التجربة وحدها أقرب إلى الحقيقة مما ينتجه الفلاســـفة بقـــياس [٤] . وفـــى دراســـة ضـــخمة للدكتور على سامى النشار ، وصل إلى أن

---

[١] طوقان ، ص ١٥ .
[٢] هونكه ، ص ٢٥١ .
[٣] على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلى فى العالم الإسلامى ، دار المعارف ، ١٩٦٧ ، ص ٢٨٩ .
[٤] عبد الرحمن بدوى ، ص ١٩ .

الأصـــوليين – علمـــاء أصـــول الفقـــه وعلماء وأصول الدين – لم يقبلوا المنطق الأرسطى ووضعوا منطقا آخر أميز صفاته أنه يخلو من مباحث الميتافيزيقا ، مما جعله منطقا يتفق مع الحاجة الإنسانية العملية [١] .

كـــذلك أكـــد (لوبون) أن العرب بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان ، أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب ، وإذا كان الفضل يعزى إلى بيكون فيقال أنـــه أول مـــن أقـــام التجربة والترصد اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة لكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله عمل العرب وحدهم [٢] .

وأشار إخوان الصفا إلى حقيقة أن الخبرة هى مصدر المعرفة ، فقالوا " واعلم أن هذه المعلـــومات التـــى تســـمى أوائل فى العقول ، إنما تحصل فى نفوس العقلاء باستقراء الأمور المحسوســـة شـــيئا بعـــد شئ ، وتصفحها جزءا بعد شئ ، وتصفحها جزءا بعد جزء وتأملها شخصا بعد شخص " [٣] .

وإذا كان من أكبر الموانع فى سبيل البحث العلمى ، عبارة السلف التى تسمى بالعرف والاقـــتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية ، والخوف المهين لأصحاب السلطة الدينية ، فإن الإســـلام لـــم يقبل من المسلم أن يلغى عقله ليجرى على سنة آبائه وأجداده ، ولم يقبل منه أن يلغـــى عقله خضوعا لمن يسخره باسم الدين فى غير ما يرضى العقل والدين ، ولم يقبل منه أن يلغى عقله رهبة من بطش الأقوياء وطغيان الأشداء [٤] .

ولنا بعد ذلك أن نسأل : إذا كان العرب قد عرفوا الجامعات فى العصور الوسطى قبل أوربـــا بعـــدة قـــرون ، فهل تأثرت الجامعات الأوربية عند نشأتها بالجامعات الإسلامية ؟ إن الدارس لتاريخ الأزهر والمدرسة النظامية بغداد ، يستطيع أن يلمس تشابها واضحا بين النظم التى كان معمولا بها فى الجامعات الإسلامية وتلك التى سارت عليها الجامعات الأوربية عند نشـــأتها . ويعتـــرف بـــذلك الباحثون الأوربيون أنفسهم ، فيقول جيوم : " أن طبيعة الدراسة المـــنظمة ، والعلاقة بين الأستاذ وتلميذه ، والهبات المالية التى عاشت عليها الجامعات وشتى نواحـــى النشاط فى الحياة الجامعية كانت بدون شك متشابهة إلى حد كبير سواء فى بغداد أو

---

[١] المرجع السابق ، ص ٨٩ .
[٢] لوبون ، ص ٤٣٥ .
[٣] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، جـ ٢ ، ص ١٧ – ١٨ .
(٤) عباس محمود العقاد : اثر العرب فى الحضارة الأوربية ، دار المعارف ، ١٩٤٦ ، ص ٢٣ .

فى اكسفورد [١] ، فنظام المعيدين الذى عرفته الجامعات منذ العصور الوسطى ومازال قائما ، سبق أن طبقة العرب فى معاهدهم . وتؤكد (هونكه) أن العرب اسهموا فى تأسيس جامعة سالرنو فى جنوب إيطاليا حيث كان محتلا عربيا فى القرن التاسع الميلادى [٢] .

ثالثا : عهد الركود

نستطيع مما تقدم أن نتصور مدى التقدم الحضارى الذى أحرزه المسلمون ونضيف هنا أن تقدم المسلمين لم يقتصر على العلم النظرى والتأليف فيه ، ولكنه تعداه إلى حياته المجتمع المجتمع نفسه . ولقد اشتهر المسلمون بأنهم قوم عمليون ، وتجار ورحالة وفقهاء وصناع . وعرف عن العقلية الإسلامية أنها عقلية إيجابية تقيس كل شئ بنفعه . ومن هنا كانت علومهم فى معظمها تطبيقية ، وللعلم عندهم وظيفة اجتماعية قبل أن يكون لذة عقلية ، أو بحث عن الحقيقة من أجل البحث ، فالحساب عندهم وسيلة للتجارة والمحاسبة ، والفلك أداة للسفر فى البحر أو فى الصحراء أو لحساب المواسم والأعياد وأوقات الصلاة . والطب للعلاج ، والكيمياء للحصول على الذهب .. وهكذا .

وكان ينبغى أن تضطرد هذه الحياة الإسلامية التقدمية حتى تصل إلى نتيجتها الطبيعية التى وصلت إليها الحركة العلمية فى أوربا فى القرن ١٨ ، عندما انتهت إلى الثورة الصناعية ، وعصر العلوم الحديثة فى القرن العشرين . ولكن الحضارة الإسلامية وقفت عند الحد الذى وصفناه ، اللهم إلا من استثناءات حدثت بقوة الاندفاع أكثر منها بالقوة الذاتية [٣] .

أما السبب فى هذا فهو عدد من النحوس توالت على العالم الإسلامى فى القرن الحادى عشر ، فالشرق العربى وقع فى أيدى الأتراك السلاجقة منذ سنة ١٠٥٠ هـ وفى المغرب العربى ، أخذ أمراؤه المسيحيون يستولون على المدن الإسلامية واحدة بعد أخرى : طليطله (١٠٨٥) سرقسطه (١١١٨) . وكذلك سقط جنوب إيطاليا قبل سنة ١٠٥٠ وصقلية من ١٠٦٠ و ١٠٩٠ م . وكانت أوربا تستعد للحروب الصليبية ، وأرسلت حملاتها فى آخر القرن . وهكذا تتمزق الدولة الإسلامية وتقع فى يد الأتراك بما عرف عنهم من التخلف والعنصرية .

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور : الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، النهضة المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٢١٥ .
[٢] هونكه ، ص ٢٠٩ .
[٣] أبو الفتوح رضوان ، ص ٢٢٥ .

ومن أهم الأسباب التى يجب أن نضيفها إلى هذا ، الاستبداد الفكرى والجدب العقلى ، والتعصب الأعمى ، وما ماثلها من ميكروبات بدأت فى الظهور والانتشار لتعبث فى جسم الثقافة الإسلامية فسادا وتخريبا . ومن هنا نجد أنه بعد أن كان المجتمع الإسلامى يشهد المعتزلة بمناقشاتهم العقلية الرائعة ، والعديد من العلماء فى الطب والكيمياء والرياضيات والفلاسفة من أمثال الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ، إذا به يشهد نوعا آخر من الناس ، يحرقون البخور للحكام الجدد الذين يقوم حكمهم على الاستبداد ، نوعا من الناس يبررون الضعف والتخاذل والجمود ، نوعا من الناس يزعمون أن الكلمة النهائية فى العلم والبحث قد قيلت من قبل ، فلا ينبغى لأحد أن يجهد ذهنه ويعمل عقله فى التفكير من جديد ، وما عليه إلا أن يقلب صفحات كتبت من قبل ليجد فيها حلا لكل معضلة ، ورأيا صوابا فى كل مشكلة مهما تباعدت الأزمان [١] .

وظهرت الدعوة إلى قفل باب الاجتهاد ، وكان التفكير الفلسفى بطبيعة الحال العدو الأول لهذا الفريق . وحتى تكتسب تلك الدعوة القداسة وقوة التأثير على الناس ، ألبست لباس الدين مبرأ منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وصدر كثير من الكتب تهاجم الفلسفة والمنطق بوجه خاص ككتاب (الرد على المنطقين) للنويختى . وفى المغرب الإسلامى أمر المنصور بن أبى عامر – بعد موت الخليفة الحاكم سنة ٣٦٧ هـ بإحراق كتب المنطق . ومن أجل هذه الحملات التى عاناها المنطق ، أخفى الغزالى اسم المنطق من عناوين كتبه اتقاء لضيق أهل السنة والجماعة ، فجعل كتبه (معيار العلم) و (محك النظر) و (القسطاس) وإن كان قد برم به فى (محك النظر) وحذر فى المنقذ من التسرع فى الوقوع فى الكفر استنادا إلى زندقة أهل المنطق .

بل بلغت المعارضة أوجها بعد الغزالى ، وتجلى نفور المتأخرين من المترددين من الفلسفة والمنطق فى فتوى ابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣ هـ . وقد أفتى بتحريم الفلسفة والمنطق وفيها يقول " وأما المنطق ، فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشر شر ، وليس تعليمه وتعلمه مما أباحه الشرع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين .. " . ونصح ابن خلدون كل من أشكل عليه الأمر وعرض له الارتباك فى الفهم أن يتجنب قوانين المنطق [٢] ، وعلت أصوات أصحاب الفقه لتستبد بأمر التفكير وتتدد

---

[١] سعيد إسماعيل على : دراسات فى التربية والفلسفة ، عالم الكتب ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠٢ .
[٢] المرجع السابق ص ٢٠٣ .

بالاجـتهادات العقلـية وكان شعار السلفيين " نفر من الكلام فى أى صورة تكون كما تفر من الأسـد " ، ويعبـر عـن شعور السلفيين نحو علم الكلام قول حانق ينسبونه إلى الشافعى هو " حكمى على رجال الكلام أنه يجب أن يضربوا بالسياط والنعال وأن يطاف بهم مشهرين فى المجامع والقبائل " .

وأكد ابن أبى أصيبعة [١] أن المنصور فى الأندلس (١١٨٤ – ١١٩٩) قد شدد فى أن لا يبقى أحد يشتغل بشىء من المنطق والفلسفة وأنه " متى يوجد أحد ينظر فى هذا العلم أو وجد عنده شئ الكتب المصنفة فيه فإنه يلحقه ضرر عظيم " .

وذكر المراكشى فى المعجب [٢] أن الفقهاء قرروا فى مجالس أمراء الموحدين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شئ منه وإنه بدعة فى الدين وربما أدى أكثـره إلى اختلال العقائد ، وكتبوا إلى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شئ منه وتوعد من وجد عنده شئ من كتبه .

وكـان اضمحلال شأن اللغة العربية من أخطر المصائب التى حلت بالثقافة الإسلامية العربية وأثره فى التربية والتعليم كان حاسما ، فالمعروف أن الفرس كانوا شركاء العرب فى دولـة الخلافـة ولكـنهم ظلوا يرقبون فرصة يتخلصون فيها من حكم العرب السياسى ومن سـلطانهم الثقافـى فجـاءت هذه الفرصة بعد سقوط الخلافة فتحللت بلاد الفرس تدريجيا من سـلطان اللغة العربية وانحصر استعمالها فى الشئون الدينية وفى بعض المدارس وعند بعض العلماء ، وظل ذلك فى ازدياد حتى جاء زمن لم يبق فيه للعرب سلطان يذكر فى بلاد الفرس حتـى فى مصر والشام والعراق غلبت أساليب الأعاجم فى الكتابة وبعض ركاكتهم فى التعبير والاصـطلاح وهذا كله جعل اللغة وتعليمها أمرا صعبا وزاده صعوبة ما طرأ على المدارس والكتاتيب من انحطاط فى المستوى العلمى والإدارى على وجه الإجمال .

ويظهـر هذا الانحطاط واضحا فى نوع العلم والعلماء لا فى عددهم أو عدد كتبهم أو عدد المدارس والمكاتب وتنوعها ، فالمدارس كانت كثيرة وعدد المدرسين والفقهاء والمؤدبين ومعلمـى الكتاتيب غير قليل ، وإقبال عدد من الطلاب على التعلم والدرس واضح لكل مطلع علـى كتب العصر ، لكن لم يظهر من ذلك علماء كبار وباحثون مشهورين . والمدارس التى

---

[١] المرجع السابق .
[٢] المرجع السابق .

وجـدت لـم تكن من درجة مدارس الجامعة السابقة والكتاتيب التى كانت مفتوحة لم تكن من درجـة لائقة فمعظمها أقيم فى بيوت خاصة أو فى زاوية من زوايا المتصوفة أو فى تكية من تكايا الدراويش كان يقضى الطالب فيها سنوات طويلة وهو يتعلم أصول العربية ومبادئ الدين ويخرج منها وقلما توصل إلى شئ صالح دائم من هذا أو ذاك .

ويمكن تفسير هذه الظاهرة وهى انحطاط مستوى المكاتب والمدارس مع كثرة عددها وعدد معلميها وطلابها بأن الذين كانوا يقومون عليها هم السلاطين والأمراء من الأعاجم فكان تأسـيس المـدارس وحـبس الأوقاف عليها أصبح سنة أو عادة عند هؤلاء يتقربون بذلك من العامـة أو يحاولـون إرضاء مشايخ الطرق وفقهاء المذاهب بتعيينهم فى وظائف التدريس أو الوعظ أو التعليم فى المدارس والزوايا والكتاتيب ، فهؤلاء السلاطين والأمراء لم يعرفوا قيمة إنشاء المدارس مثل ما عرفها نظام الملك أو العزيز .

رابعا – عهد الاستعمار الثقافى والتربوى

الغزو الفكرى وآثاره :

كـان للحروب الصليبية أثرها فى التمهيد لما شهده العالم الإسلامى من مظاهر غزو فكـرى . وترجع الحروب الصليبية من بين ما ترجع إليه على ما بدأ على المجتمع الأوربى فـى نهاية العصور الوسطى من انتعاش ، وقد اتصل هذا الانتعاش بعد ذلك وكان من بوادره ظهور بحر الشمال وسيطرة أوربا على البحر المتوسط واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والأمـريكتين ثـم مـا عقب ذلك من نمو اقتصادى لا سابق له إذ كانت أوربا تتصل بأسواق الشـرق الأقصى اتصالا مباشرا وتضع يدها على عالم ثان وتنتقل بالتالى من الإنتاج المحلى البسـيط لأسـواقها المحـدودة إلـى الإنتاج الضخم للعالم الجديد وشعوب آسيا وأفريقيا أيضا وتـزاول ما يستتبعه هذا الإنتاج من اتجار ونقل ومن ثم كان ازدهار التجارة والصناعة فيها ازدهار مذهلا .

وكـان المجـتمع القائم على هذا النحو الاقتصادى يأخذ من ناحيته أثناء ذلك بأسباب الرقـى الـذى نشـهده فى الغرب فقد اتسع نشاطه حتى أصبح يشمل الشرق الأقصى والعالم الجديـد وآسـيا الوسـطى أى المناطق التى جعل أبناء أوربا ينزحون إليها معها ويتكاثرون ويحـيون حـياة رخية جديدة . وتمايزت وظائفه فانفصلت الشئون الدينية عن الشئون الدنيوية وتـنوع الاقتصـاد وازدهر وقد لزم هذا النمو وتفاعل معه ما كان لابد حادث فى عالم الثقافة

والتربية من تحول عميق شامل فعادوا يدرسون آثار الماضى الإغريقى الرومانى ويبنون من حيث انتهى أسلافهم ويتعمقون الحياة المادية بعد أن طال تعمقهم للحياة الأخرى ، وكان الاتجاه إلى العلوم الطبيعية والدراسات التطبيقية التى ثارت بالعالم من جديد باختراعات القرن التاسع عشر [١] .

وكان العالم العربى يعيش أثناء ذلك تحت وطأة الحكم العثمانى حياته الخاصة بعيدا عن التطورات التى أصابت الحياة الغربية ومقدراتها وقوانينها ولم يكن العثمانيون فى نهاية الأمر سوى موجة جديدة من هجرة أهل آسيا الوسطى إلى حوض البحر المتوسط يمتازون بما امتاز به من سبقهم إلى تلك الهجرة من أكراد ومغول وشراكسة من خشونة بدوية مقاتلة ومن ثم كانت غاراتهم المستمرة وضعف استيعابهم لدواعى الحياة المدنية وعدم اكتراثهم أيضا للاكتشافات الجغرافية الجديدة على الإطلاق فهم لم يتصلوا بأمريكا ولم يحاولوا شيئا فى سبيل منافسة طريق الرجاء الصالح وقنعوا بما عرفوه وعرفته البلاد التى استولوا عليها من نظم اقتصادية أصابها ما أصابها من انتكاس فى ذلك الوقت بالذات .

وقد كان من شأن مضى الغرب فى الطريق الفسيح الجديد الذى رأينا بعد انقباضه فى العصور الوسطى وتعثر الشرق فى الطريق الذى كان أخذ به منذ الفتوح العربية بعد الإمعان فى الاتساع وعدم تعرضه لعوامل فعاله كالعوامل الخارقة التى طرأت على حياة الغرب من اكتشافات جغرافية إلى اختراعات علمية إلى ظهور طبقات جديدة على حياته ، كان من شأن ذلك أنه ما إن انكسرت الغارات العثمانية فى القرن السابع عشر والتقى العالمان فى بداية الحياة المدنية حتى طغى الغرب على الشرق وغمره غمرا كما يحدث حين يلتقى سائل فى مستوى عال بسائل فى مستوى أقل منه ارتفاعا ما يطغى عليه ويغمره .

أساليب الغزو الفكرى :

وسلكت الثقافة الغربية عدة مسالك فى غزوها للعالم العربى لكننا الآن ننبه بادى ذى بدء إلى أن هذا الغزو كانت تحكمه قواعد خاصة وتوجهه سياسية معينة ولم يكن مطلقا كما قد يوحى كلامنا وإلا فإن لنا أن نحمد الله على أن الثقافة الغربية قد غزت الثقافة العربية ذلك أن هذه الثقافة الحديثة لا يمكن أن ننكر عليها قوتها وحيويتها وعظمتها ، ولكن لكل حضارة سلبياتها فى مقابل إنجازاتها الإيجابية . والقواعد الخاصة والسياسية المعينة التى روعيت فى

---

[١] المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

تسرب الثقافة إلى العرب تتلخص فى السماح بأكبر قدر مستطاع فى تهريب هذه السلبيات والعمل بكل جهد ممكن على حجب الإيجابيات ، فإذا لم يكن مفر من معرفتها فعلى الأقل لابد من تحطيم القاعدة الاقتصادية وتسميم المناخ السياسى وخلخلة البناء الاجتماعى وهى الأبعاد الأساسية التى لابد منها لقيام ثقافة حديثة ونموها وتطورها .

ويمكن الإشارة إلى مسالك الثقافة الأوربية الحديثة إلى العرب فيما يلى :

-فهناك عدد لا يستهان به من العرب وخاصة من مصر والشام أتيحت لهم فرصة طلب العلم فى مختلف المدارس والمعاهد والجامعات الغربية استمروا عدة سنوات عاشروا فيها الغربيين وخبروا عاداتهم ومناهج تفكيرهم فتأثروا بها بطبيعة الحال كما قرءوا العديد من الكتب والمراجع والصحف التى تلخص أهم ما فى الحضارة الغربية من أفكار وفلسفات ونظريات وتتلمذوا على أيدى عدد من الأساتذة فى مختلف فروع المعرفة كان بعضهم إماما فى فنه ، وعندما عاد هؤلاء إلى بلادهم كان طبيعيا أن يحملوا معهم كثيرا مما قرءوه وخبروه وسمعوه ، وهكذا رأينا أفكار الفلسفة الوجودية والوضعية المنطقية والماركسية وغيرها تتسرب إلى ثقافتنا ، وهكذا رأينا كيف استطاعت فلسفة التربية البراجماتية أن تتغلغل فى نظمنا ومناهجنا وسياستنا التعليمية ، ونفس الشىء يمكن قوله فى قطاعات أخرى عديدة [١] .

-قام بعض المثقفين العرب بترجمة عدد كبير من المؤلفات العلمية الغربية لعبت دورا كبيرا فى تشكيل ثقافتنا منذ تم اللقاء الأول بين الثقافتين فى أواخر الثامن عشر ، ففى مصر فى عهد محمد على ترجمت عشرات الكتب الخاصة فى مجالات العلوم العسكرية والطبيعية والرياضية ومنذ عهد إسماعيل نشطت حركة الترجمة فترجم أحمد فتحى زغلول عددا من الكتب السياسية والاجتماعية والتاريخية مثل العقد الاجتماعى لروسو ومبادئ التشريع لبنتام وسر تقدم الإنكليز فى بلادهم ، وسر تطور الامم لجوستاف لوبون ، وترجم محمد السباعى " التربية " لسبنسر ، ونقل محمد عثمان جلال وغيره عددا من المسرحيات الأوربية إلى العربية وترجمت معظم كتب جون ديوى إلى اللغة العربية مثل (الديمقراطية والتربية) و(البحث عن اليقين) و (المنطق نظرية البحث) إلى غير ذلك من مترجمات احتل فيها الأدب المركز الأول .

---

[١] محمد الهادى عفيفى وآخرون : التربية ومشكلات المجتمع ، الانجلو المصرية ، ١٩٧٣ ، ص ١٧٠ .

– عـندما تعرضـت الشـام لحملة من الاضطهاد فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسـع عشـر هـرب عدد من المفكرين إلى مصر حيث وجدوا مناخا أتاح لهم الفرصة فى العمـل الثقافى والتربوى فأسسوا كثيرا من المدارس والصحف والمجلات التى دأب معظمها على الترويج للثقافة الغربية ، وكانوا موزعين بين النفوذ الفرنسى والنفوذ الإنجليزى . وكانت صـحيفة الأهـرام تمثل الاتجاه الأول بينما كانت (المقطم) و (المقتطف) يمثلان الاتجاه الثانـى ، وكانـت هـذه الصـحف ، والصحيفة الأخيرة بنوع خاص ، دائبة على التعريف بالمـذاهب الغربية فى الفلسفة والآداب وسائر ضروب الثقافة لا تكاد تشير إلى شئ من قديم العرب وتراثهم الفكرى . وكانت تترجم لعظماء الرجال من الغربيين ولا تكاد تجد فيها ترجمة لـرجل من أبطال العرب والإسلام أو مصر فى تاريخها الحافل الطويل ، كما كانت تعمل من طـريق خفى على إضعاف النعرة الدينية والوطنية بما تنشر من آراء تشكك فى العقيدة وبما تذهب إليه من نزعات عالمية [1] .

–عـدد كبير من أصحاب الإرساليات الدينية جاءوا إلى العالم العربى متسترين وراء الـدين مخفـين وجهـا استعماريا بغيضا وقلبا ينبض بروح الحقد والكراهية فأخذوا ينشرون المـدارس الأجنبـية فى طول البلاد وعرضها ، بل كانوا حريصين على التغلغل فى الأقاليم والـريف العربـى ، متقربين إلى قلوب الناس ببعض المساعدات الطبية والغذائية والدعوات الدينـية . ومـن المفارقـات المضحكة ، أن هذه الأساليب كانت تبذل جهودا مضنية لا فى اكتسـاب أتباع جدد للديانة المسيحية ، وإنما فى تحويل أبناء العرب المسيحيين من مذهب إلى مـذهب مـثلما فعلوا فى تحويل عدد من أبناء القبط فى مصر من المذهب الأرثوذكسى إلى غيـره . وكـذلك كانت مدارسها لا تسير إلا وفقا للمناهج والنظم التعليمية القائمة فى بلادها الأصـلية حتـى أصبح معظم خريجى هذه المدارس يتقنون لغة أجنبية ولا يعرفون من لغتهم العـربية إلا الشىء القليل ، ويطلعون على جغرافية فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا ، ولا يعلمون شـيئا عن تاريخ مصر والعراق وليبيا والجزائر وجغرافيتها – فهى إذا كانت قد ساعدت على نشر الثقافة الغربية لم يكن بهدف (التلقيح الثقافى) وتطوير القديم وتجديده ، وإنما كان بهدف (التدمير والأضعاف) .

---

[1] محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٢٤٣ .

آثار الغزو الفكرى على التعليم العربى :

وكانـــت القوى الاستعمارية من الذكاء بحيث أدركت أنها إذا كانت قد تمكنت ن العالم العربى بامتصاص ثرواته الطبيعية وبإثقال خزائنه الحكومية بالديون وبوضع حكام على مقاليد الأمور يكونون مجرد (دمى) سهلة التحرك فيما يراد لها ، وإذا كان قد تمكن أيضا من هذه المـــنطقة عـــن طريق التواجد العسكرى ، إلا أن ذلك كله بمثابة من بنى صرحا ضخما على الـــرمال .. فلابد من حفر ولابد من إرساء القواعد والأسس ، ولن يكون ذلك إلا بغزو العقل العربـــى وإلا بالتمكن من التربية والتعليم وتوجيهها وفقا لما يخدم المخططات الاستعمارية . وتجلى ذلك فى عدد من المظاهر والأساليب يمكن إبراز أهمها فيما يلى :

- دأب الاســـتعمار فـــى كـــل ركـــن من أركان الوطن العربى على أن يوجه النظم التعليمـــية بصـــورة صريحة أحيانا وبصورة ضمنية أخرى . أما الصورة الصريحة ، فتتجلى فـــى تعين مفتشين أجانب فى القيادات التعليمية وفى أجهزة السلطة التربوية لتشرف على كل صغيرة وكبيرة حتى لا يفلت شئ فيسير فى اتجاه غير مرغوب فيه ، أما الصورة الضمنية ، فتتجلى فى تلك الأعمال التى قام بها عدد كبير من العلماء العرب الذين استطاع الاستعمار أن يلمس ما فى شخصياتهم من ضعف قومى ووهن دينى فكانوا أدواته فى تحقيق أهدافه .

وقـــد ركزت السياسة الاستعمارية بطبيعة الحال على مناهج الدراسة باعتبارها المقوم الأساســـى للعملـــية التعليمية فعملت على أن تنحو بها نحوا نظريا بحتا بحيث تعود المواطنين العرب على الاشتغال بالكلام والاهتمام بالثقافة اللفظية والوسائل الكلامية البحتة لا خطر منها على الاستعمار ، ولا يمكن الركون عليها وحدها فى تغيير المجتمع .

ولـــم يقتصر الأمر على اللفظية ، وإنما امتد ليشمل كذلك تكبيل المناهج بالقيود بحيث تمـــيل إلـــى الجمود والتخلص وعدم مسايرة اتجاهات العصر وبذلك تسهم فى تعميق التواجد الاستعمارى والتخلف الوطنى .

- ولمـــا كانـــت الحـــياة بطبيعـــتها متكاملة ، فإن السياسة التى تسير وهى تعانى من (انفلاقات) تعوق أكثر ما تعين وتهدم أكثر مما تبنى ، ومن هنا كان الحرص على بذر بذور الثنائـــيات الثقافـــية والتعليمـــية ، فهناك التعليم الفنى ، والتعليم العام ، وهناك الثقافة الشرقية التقليدية ، والثقافة الغربية الحديثة ، وهناك المدارس الأجنبية والمدارس الوطنية وهناك التعليم الابتدائى والتعليم الأولى .. الخ .

– كـذلك فقـد بذلت جهود ضخمة فى إقامة نظامين للتعليم فى البلاد العربية أحدهما دينـى والآخـر مدنى وكان من أثر ذلك أن انقسم المثقفون إلى فريقين فريق سلفى ، وفريق حـديث ، وأدى هذا إلى حجب التعليم الدينى عن إمكانيات التطوير والتجديد وإيهام الناس بأن ذلـك إنما هو كفر وضلال ، هذا بالنسبة للمتدينين أما بالنسبة لغيرهم ، فقد وقر فى ذهنهم أن الدين عدو التقدم وعائق للتطور . وفى نفس الوقت حرموا اتجاهات التطوير والتحديث من أن تـرتبط بالقيم الثقافية العربية الأساسية خوفا من تهمة التخلف والجمود ومن هذا وذلك عانت الشخصية العربية من التمزق وتبديد الجهود وإفراغ الطاقات فيما لا طائل من ورائه .

– وإذا كـان الاقتباس مطلوبا ، والتغذى على الثقافات المتقدمة مرغوبا ، إلا أن لذلك قـواعد وأصـول لابد أن تراعى وإلا كان الضرر أكثر من النفع من عملية الاقتباس ، ومع الأسـف الشـديد ، فعـندما بهر العرب بإنجازات الثقافة الغربية الحديثة أيقنوا أن وراء هذه الاتجاهات نظما تعليمية رائعة كانت مصانع حقيقية تخرج المواطنين القادرين على صنع هذه الحضـارة ، أسرعوا باقتباس هذه النظم دون أن يدركوا ، أن النظام التعليمى ، إنما هو جزء مـن النظام الاجتماعى وأنه إذا كان وليد النظريات العلمية والمقومات المادية ، إلا أنه مرتبط كذلك بالخبرات التاريخية والمشاعر القومية والسمات الشخصية مما قد يجعل نظاما يصلح فى مجتمع ، حتى إذا عزل ونقل بحذافيره إلى مجتمع آخر أصابه الفشل والاضطراب .

– والعالم العربى لاتساع رقعته الجغرافية ، ملئ باللهجات المحلية ، ولو لم تكن هناك هـذه اللغـة القومـية العربية لا نفرط عقد عدد من أجزاء هذا الوطن . ومن هنا فقد حرص الاسـتعمار على تشجيع اللهجات المحلية ، وآية ذلك ما حدث فى مصر بعد مجيء الاستعمار البريطانـى ، فقـد شـاعت دعوة إلى ترك العربية الفصحى إدعاء أنها صعبة ومعيقة للتعليم وضرورة الارتكان إلى اللهجة المصرية العامية ، ووقع بعض المثقفين المصريين مع الأسف فـى هـذه المصيدة فشايعوها وأيدوها ، بل وطبقوها بالفعل فى إنتاجهم الفكرى . وحدث هذا أيضـا فـى المناطق الكردية فى شمال العراق وسوريا ، وفى جنوب السودان وفى المغرب العربى . ولكن قوة الثقافة العربية استطاعت أن تقهر هذه الدعوات الخبيثة لتظل اللغة العربية الرابطة الأساسية بين شعوب المنطقة .

– ولـم يقتصر الأمر على تشجيع اللهجات المحلية ، بل تعداه إلى فرض التعليم بلغة أجنبـية ، فصار التعليم بلغة أجنبية ، فأصبح فى الجزائر وتونس والمغرب بالفرنسية وكذلك فـى سوريا ولبنان ، أما فى العراق ومصر وفلسطين والسودان فقد أصبح بالإنجليزية . وإذا كان هذا الاتجاه قد سهل التغلب عليه ، كما حدث فى مصر إلا أنه قد رسخ فى بعض المناطق

الأخـــرى كما نرى فى الجزائر مثلا ، مما ألقى على عاتق الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال عبئا ضخما فى سبيل التعريب .

– كـــذلك مـــر بنا أن الإرساليات الدينية أقامت عدد ضخما من المدارس فى المنطقة العربية جذبت إليها الآلاف من أبناء العرب بحكم الأساليب المتعددة التى اتبعت لجذبهم سواء بالإمكانـيات الضـــخمة والمســـاعدات الطبـــية وغيرها ورسخت هذه الإرساليات الكثير من المشـــكلات التربوية والثقافيات التعليمية ، كما أسهمت فى إضعاف التماسك الاجتماعى داخل البلد الواحد .

– ومـــن أهـــم ما يمكن الإشارة إليه ، ذلك التباين الذى فرضه الاستعمار فى أنظمة التعليم فى الوطن العربى ، ففى بعض المناطق نجد تعليما للبنات وفى البعض الآخر لا نجد ، وهناك بلاد تعرف معاهد التعليم الفنى ، ثم نجد بلادا أخرى لا تعرف هذا النوع من المعاهد ، وهـــناك المـــناطق الريفية المحرومة من الخدمات التعليمية ، وهناك المناطق الحضرية التى تتمتع ببعضها .

وعلـــى الرغم من أن المنطقة العربية قد عانت من ويلات الاستعمار فى وقت واحد ، إلا أن الـــتطور الـــذى حـــدث للـــنظم التعليمية لم يسر بسرعة واحدة مما كان أثره فى بذور الاخـــتلاف والتـــباين بـــين هـــذه الأنظمة الآن ، وهذه بدوره شكل عائقا ضخما أمام الجهود المبذولة فى سبيل الوحدة العربية .

– ولمـــا كـــان لكـــل فعـــل رد فعل مساو له فى القوة ومضاد فى الاتجاه ، كان من الطبيعـــى أن تستنفر هذه الآثار جهود الحركات الوطنية العربية لتلعب دورها لا على المسرح السياسى فقط ، وإنما على المسرح التربوى كذلك ، فرأينا جهودا فعلية لإقامة المدارس فرديا أو عـــن طريق جمعيات وهيئات حتى توفر لأبناء الوطن العربى الفرص التعليمية التى حجبها عـــنه الاســـتعمار مـــن ذلك مثلا – فى مصر – الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجمعية التعليم المصـــرية وغيرها . كذلك أسهمت بعض الأحزاب السياسية فى ذلك كما فعل الحزب الوطنى .وعلـــى المســـتوى الفكرى نهض الكثيرون يفضحون أساليب الاستعمار وينبهون المواطنين لخطـــرها ويبصـــرونهم بالأســـاليب التـــى يجـــب أن يلجئوا إليها للقضاء على هذه الجهود الاستعمارية ، وينقلون إلى الجماهير ثمرات الفكر التربوى الحديث ليعينهم فى أعمالهم ، نذكر من هؤلاء ساطع الحصرى وطه حسين وإسماعيل القبانى والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وعبد الله النديم وعبد الحميد بن باديس وغيرهم كثيرون .